

الظافر بأمر الله أبو المنصور اسماعيل بن الحافظ

لدين الله

أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد

ابن المستنصر بالله

ولد يوم الأحد، النصف من ربيع الآخر، سنة سبع وعشرين وخمسة، وبويع في اليوم الذي مات فيه الحافظ لدين الله، وهو كما تقدم يوم الأحد الخامس من جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسة، وعمره سبع عشرة سنة وأربعة أشهر وعشرة أيام، بوصية من أبيه له بالخلافة، وكان أصغر أولاده وفيهم أبو الحجاج يوسف وأبو الأمانة جبريل، وهما أسن منه، وركب بزي الخلافة واستوزر الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم ابن محمد بن مصال، بوصية الحافظ بذلك أيضا، ونعت بالسيد الأجل الأفضل أمير الجيوش وخلع عليه خلع الوزارة، وهو يومئذ من أكابر الأمراء، وهو شيخ لين متواضع، فسكن دار المأمون البطائحي، وصار أبو الكرم التنيسي من ذوي رأيه.

وأول ما بدأ به الظافر أنه ركب بعد صلاة العشاء الآخرة، بالشمع في القصر، ووقف بباب الملك بالإيوان المجاور للشباك، وأحضر ابني الأنصاري، وهما أبو عبد الله وأبو... واستدعى متولي الستر، وهو صاحب العذاب، وأحضرت آلات العقوبة، وضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك، وثنى بأخيه كذلك، ثم أخرجها وقطعت أيديهما وسلت ألسنتهما من أفقيتهما، وصلبا على بابي زويلة الأول والثاني، فأقاما زمانا ثم وضعوا.

وكان سبب قتلها أنها كانا من الكتاب فنبغا وتوصلا بالحافظ،

فاستخدمهما في ديوان الجيش، فوثبا على رؤساء الدولة وأعيان كتابها وخواص الخليفة من الأستاذين المحنكين، مثل الأجل الموفق كاتب الدست— وكان موضع سر الخليفة ومحل مشورته في الأمور العظام، من أحوال الممالك— ومن يليه، كالقاضي المرتضى المحنك، والخطير ابن البواب، وتجراً على المذكورين وغيرهم مع قلة دربة، فكثرت حسادهما وعمل عليهما فيما يخرج للأمرء والمقطعين من الخرجات في كل سنة، ويشتمل الخرج على نعوت ذلك الأمير، فيصير ذلك الخرج إلى عامل الإقطاعات، وهو تحته، فذكرنا في أحد الخرجات كلاماً ظريفاً ليؤخذ عليه خطهما ليقف عليه الخليفة حتى يتبين له جهلهما، وهو: «حبطست حبطست، وفي النهر قد غطست، بغلالة أرجوان، صفراء بزعفران»، فمشى عليهما ذلك وترجما الخرج بخطهما، وخرج من أيديهما، فأحضر إلى الأجل الموفق ابن الحجاج، كاتب الدست، فأخذه ودخل به إلى الخليفة الحافظ، وقال: يامولانا، الأمثال مضروبة بحفظ ديوان هذه الدولة ومن يتولاها، فكيف لو ظفر بهذا الخرج مخالف لها، يقصد التشنيع عليها، فقال له الحافظ: يامولاي الموفق، هبهما لي، فقال: يامولانا، كلنا مماليكك وخرج، ولم يبلغ الأعداء منها ما أرادوا، فزاد أمرهما في الدولة على الخليفة والاستعلاء على الناس.

وأراد الأكبر منها أن يدخل على الخليفة ويخرج ظاهراً ليراه الناس، فجدد له ديواناً سماه ديوان الترتيب، وجمع فيه من يخدم في ترتيب الأعمال صفقة صفقة، وأن يكون أميرهم بجار يقرر له— وهذا الترتيب يقال له في غير هذه الدولة صاحب البريد— فكان يكاتب متولي هذا الديوان بالأخبار بمطالعات تصل إليه مترجمة بمقام الخليفة فيعرضها من يده ويجاوب عنها بخطه، فورد كتاب بعض أصحاب الترتيب بقضية، فأجابه بكلام، وأراد الاستشهاد بآية من كتاب الله تعالى، فحرفها وقالها على غير ما أنزلت، ووقع الجواب للموفق، فأخذ في كفه مصحفاً ودخل إلى الخليفة ومعه جواب ابن الأنصاري، وقال: يامولانا، هذا

كتاب الله تعالى قد حضر إلى مقامك، وهو المنزل على جدك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يشكو إليك جناية ابن الأنصاري عليه، فخذ بحقه فإن هذا (من) الجنايات، والحمد لله إذ وقع هذا الكتاب إلى المملوك دون غيره، فإن المملوك لم يزل يتتبع هذه الأمور لثلا يقع عليها أعداء الدولة فيشيعوا ذلك في الدول المخالفة لها، فقال له الحافظ: أنا أعلم منك هذا وأعلم من المذكورين ما ذكرت، وقد كنت سألتك فيها مرة، وهذه الثانية، فإن لها علينا خدمة، فقال: العفو يا مولانا، وانصرف ولم ينل منها غرضاً، فأمر الحافظ ابن الأنصاري الأكبر أن يمضي إلى الأجل الموفق ويخدمه في داره.

وكان يومئذ ديوان المكاتبات مقسوما بين أبي المكارم ابن أسامة وبين الموفق، إلا أن ابن أسامة لا يلتفت لأمر الديوان لكثرة شغله بديناه، فاستتاب ابنه أبا المنصور عنه، وكان يلحق بأبيه في الاشتغال بأمر دنياه عن النيابة، فصار اعتماد الخليفة في الديوان بأجمعه على الأجل الموفق، وكان ينفذه ولا يشق على ابن أسامة لما أسلفه من الخدم السابقة، ثم لما مات أبو المكارم أسامة، وكان في الظن أن ابنه أبا المنصور يستخدم مكانه، سبق ابن الأنصاري وسأل الحافظ فاستخدمه في النصف من ديوان المكاتبات فقط شريكا للموفق فيه، وانفرد الموفق بالإنشاء، ونعت ابن الأنصاري بالقاضي الأجل سناء الملك، وأمره الحافظ بخدمة الموفق وأن يقنع معه بمجرد الرتبة، فشق ذلك على الموفق وصبر على ضرر وقرر أبو المنصور بن أسامة في ديوان الترتيب مكان ابن الأنصاري

وتجند ابن الأنصاري الأصغر. وتأمر في يوم واحد، وخلع عليه بالطوق، ورتب في زم الإميرية، وهي طوائف الأجناد، فكثرت الأعداء وتعددت الحساد، واشتغل الناس بهما وأطلقوا الألسنة بدمهما، فكان يقال: هذا الأمير الطاري، ابن الأنصاري، ولج الناس بالكلام فيهم وهم عاجزون عنهم، حتى مات الحافظ فكان من أمرهما مع ابنه الظافر ما تقدم ذكره.

وفي يوم الثلاثاء رابع شعبان اجتمع كثير من السودان وعدة من
المفسدين ببعض القرى، فخرج إليهم الوزير ابن مصال وحاربهم حتى
كسرهم.

وكان الأمير المظفر سيف الدين معد الملك ليث الدولة علي بن
اسحاق بن السلار واليا على البحيرة والاسكندرية وكان ابن زوجة ركن
الاسلام عباس والي الغربية، فلم يرض ابن السلار بوزارة ابن مصال،
وخرج من الاسكندرية إلى ربيبة بالغربية واتفقا على القيام وإزالة ابن
مصال، فبلغه ذلك، فأعلم به الخليفة الظافر، فجمع الأمراء في مجلس
الوزارة وبعث إليهم زمام القصور يقول: هذا نجم الدين وزيرني ونائبي
فمن كان يطيعني فليطعه، ويمثل أمره، فقال الأمراء: نحن ممالك
مولانا سامعون مطيعون فرجع الزمام بهذا الجواب، فقال أمير من الأمراء،
شيخ يقال له دري الحرون، وهو أحد أشرار القوم ومن رفقة ابن السلار:
إن سمع مني ما أقول قلت، فقال له الوزير: قل، قال: مولانا، صلوات
الله عليه، يعلم وأنت تعلم أن مافي الجماعة من يضرب في وجه ابن
السلار بسيف، وأولهم أنا، فإن كان مولانا يقتل جميع أمرائه وأجناده
فالأمر لله وله، فلما سمع الجماعة ذلك قاموا وخرجوا من القصر، وشدوا
على خيولهم، وساروا يريدون ابن السلار.

فلما غلب الظافر عن دفعه أعطى ابن مصال مالا كثيرا، وأمره أن
يعمل لنفسه ما يرى في الخيرة وهو يساعده، وسار ابن السلار فرأى ابن
مصال أنه لاطاقة له به، فخرج إلى جهة الصعيد، وعدى إلى الجيزة ليلة
الثلاثاء رابع عشر شعبان، عندما سمع بوصول المظفر، وقدم ابن السلار
إلى القاهرة في يوم الأربعاء خامس عشر شعبان، فوقف على القصر وسير
إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم بحاله، فجرت بينه وبين أهل
القصر مراجعات كثيرة آخرها أنه فتح له أبواب القصر وخلع عليه خلع
الوزارة، ونعت «بالسيد الأجل أمير الجيوش، شرف الاسلام، كافل قضاة
المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين».

وهو يحقد على الظافر ميلة مع ابن مصال، وفي نفس الخليفة نفور منه أيضا وسكن دار الوزارة.

وجمع ابن مصال كثيرا من السودان ومن العربان ولواته وغيرهم، وانضم إليه بدر بن رافع، مقدم العربان وسار بهم، فندب ابن السلار ربيبه المظفر أبا المنصور ركن الدين عباس بن أبي الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس في عسكر، فنزل بركة الحبش، وقدم ابن مصال أمامه الأمير الماجد في عسكر، فطرق عباسا على حين غفلة وقتل من عسكره كثيرا، وانهمز جماعة، وثبت عباس حتى أتته النجدة من الغد فكر على أصحاب ابن مصال وقتلهم، فلم يفلت منهم إلا من سبحت به فرسه في النيل، وأخذ الأمير الماجد نسيب ابن مصال ضرب عنقه، فسار ابن مصال إلى بلاد الصعيد يجمع الأجناد والعربان.

وشرع ابن السلار يجهز عباسا فجهزه في جيش كثيف وبادر بالخروج خوفا من الاجتماع على ابن مصال، فسار إلى دلاص ومعه طلائع بن رزيك، وهو أحد المقدمين، فبرز إليه ابن مصال، وواقعه عدة وجوه، فانجلت الوقائع عن قتل ابن مصال وبدر بن رافع مقدم العربان في يوم الأحد التاسع عشر من شوال، ويقال إنه بلغت عدة القتلى سبعة عشر ألفا، فعاد عباس وقد قوي ومعه رأس ابن مصال إلى القاهرة، فطيف بها على قناة القاهرة ومصر يوم الخميس ثالث عشري ذي القعدة، وحمل أهله وولده إلى القصر وأخلت لهم قاعة، وخلع على ابن السلار.

وكان ابن مصال من أهل برقة، وخدم أولا في البيزرة والصيد هو وأبوه، فتقدم في الخدم حتى نال الوزارة، واتفق أنه مر في وزارته مرة فقالت له امرأة كانت تعرفه في حال فقره: سليم وزرت؟ فقال لها: نعم، قالت: والله ماوزرت وبقي أحد، فضحك وأمر لها بصلة.

وكان العادل ابن السلار منذ استقر في الوزارة أخذ ينظر في أمر الأجناد المعروفين بالنهضة والعزم في أرزاقهم، وتفقد خزائن السلاح، وحفظ النواميس، وشد من مذهب أهل السنة، فقدم عليه الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي، فأكرمه وبنى له مدرسة بالاسكندرية.

وقدم عليه مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقذ، فأكرمه، إلا أنه كان يستوحش من الظافر وخائفاً على نفسه فاحترز بأن انتدب رجالاً يمشون في ركابه بالزرد والخوذ نحو الستائة ويجعلهم نوبتين بزمامين في كل يوم نوبة، وتوهم أن الخليفة خبأ له قوماً يغتالونه بالقصر، فنقل جلوس الخليفة من القاعة التي يدخل إليها من الدهاليز المظلمة إلى الإيوان في البراح والسعة، فكان إذا دخل إلى الخليفة يدخل ومعه أولئك الذين انتدبهم كلهم، فيجلس الخليفة في الشباك بالإيوان ويجلس هو من خارجه، ومع هذا يباليغ في الخدمة ويظهر الطاعة، ولا يخل بها في قول ولا فعل.

وكان للخليفة غلمان نحو الخمسمائة رجل يقال لهم صبيان الخاص وفيهم من هو أمير، فبلغ ابن السلار أنهم قد تحالفوا وتعاهدوا على أن يهجموا عليه وهو في داره ليلاً ويقتلوه، فلما كان في سادس عشري رمضان أغلق القاهرة والقصور وأحاط بصبيان الخاص وقتلهم، وفر منهم عدة، فكتب إلى الولاة بقتل من ظفر به منهم، وأخذ يتبعهم حتى أتى على أكثرهم.

وأصل هذه الطائفة التي كانت تعرف بصبيان الخاص أن من مات من الأمراء والأجناد وعبيد الدولة وله ولد فإنه يحمل إلى حضرة الخليفة ويودع في أماكن مخصوصة، ويؤخذ في تعليمه أنواع الفروسية من الرمي وغيره، ويقال لهم صبيان الخاص.

وأخذ ابن السلار في الاحتفال بأمر عسقلان وسد خللها، وحمل إليها من الغلال والأسلحة شيئا كثيرا.

وولى عضد الخلافة ناصر الدين نصر بن عباس ربيبه مصر بشفاعة جدته أم عباس، وكان فيه جرأة، فاستدعاه الخليفة الظافر وقربه واختص به.

وفيها قتل الموفق أبو الكرم محمد بن معصوم التنيسي في يوم الجمعة الرابع من شوال، وكان يتولى نظر الديوان، وذلك أن ابن السلار لما كان في بداية أمره من جملة الصبيان الحجرية دخل يوما على الموفق ابن معصوم برسالة وأعادها عليه مرارا وأغلظ له في القول فنصرت منه نفس ابن معصوم، فكتب له مرة منشور بإقطاع وجاء به إلى ابن معصوم ليثبته، فلما رآه تغافل عنه وأهمل أمره إهانة له وكراهة فيه، فقال له ابن السلار وقد تكرر سؤاله وهو يعرض عنه: ماتسمع؟ فقال له الموفق: كلامك ما يدخل في أذني أصلا، فولى ابن السلار وخرج من غير أن يكتب له، وصرف الدهر ضرباته، وصار ابن السلار وزيرا وابن معصوم ناظر الدواوين، فلما دخل عليه قال له: يا قاضي، ما أظن كلامي يدخل أذنك، فتلجلج وقال: عفو السلطان، فقال: قد استعملت العفو بخروجي من عندك وأشار لبعض خدمه فأحضر مسارا حديدا عظيم الخلقة، وقال: والله هذا أعددته لك من ذلك الوقت، وأمر به فجر وضرب المسمار في أذنه حتى نفذ من الأخرى، وحمل إلى باب زويلة الأوسط ودق المسمار في خشبة وعلق عليها ميتا، ثم أنزل بعد أيام.

وفيها رمي برأس سعيد السعداء الخادم من القصر في سابع عشر شعبان، ثم أخرج وصلب بباب زويلة من ناحية الخرق، وهو هذا الذي تنسب إليه دويرة سعيد السعداء التي هي اليوم خانقاه برحبة باب العيد.

وفيهما قتل تاج الرئاسة ابن المأمون البطائحي في رابع عشر صفر.

وفيهما مات أبو الحسن علي بن الحسن البيساني، والد القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي، وكان قاضي بيسان والناظر فيها، ومولده في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسة، ومولد أبيه الحسن يوم عيد الغدير من ذي الحجة سنة ستين وأربعمائة (١٣٠).

سنة خمس وأربعين وخمسة

فيها أغار جمع كثير من الفرنج على الفرما ونهبوها، وحرقوها وأخربوها، في رجب.

سنة ست وأربعين وخمسة

فيها جهز أبو منصور علي بن إسحاق، المعروف بالعاذل ابن السلار، المراكب الحربية بالرجال والعدد، وسيرها في ربيع الأول إلى يافا، فأسرت عدة من مراكب الفرنج، وأحرقوا ما عجزوا عن أخذه، وقتلوا خلقا كثيرا من الفرنج بها، ثم توجهوا إلى ثغر عكا فأنكروا فيه، وساروا منه إلى صيدا وبيروت وطرابلس فأبلوا بلاء حسنا، وظفروا بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم.

وبلغ ذلك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، ملك الشام، فعزم على قصد الفرنج ومحاربتهم في البر، ولو قدر ذلك لقطع الله دابر الفرنج، لكنه اشتغل بإصلاح أمور دمشق.

وعاد الأسطول مظفرا بعدما انفق عليه العادل ثلاثمائة ألف دينار، وسبب مسير الأسطول تخريب الفرنج للفرما.

وفيهما قطع العادل بن السلار جميع الكسوات المقررة للناس في الدولة فعم ذلك الأمراء والدواوين وغيرهم.

سنة سبع وأربعين وخمسمائة

فيها صرف ابن السلار أبا الفضائل يونس عن القضاء، وكان من الأعيان النزهين الأنفس، الكبيرين الهمم، العظيمين القدر، لم يشرب قط ماء النيل بل ماء الآبار، ولم يأكل خبز السلطان، وقرر عبد المحسن بن محمد بن مكرم من بعده؛ ثم صرفه وولى بعده بدر بن ثمال بن نصير، وقيل بل الذي تولى بعده أبو المعالي محمد بن جميع بن نجا الأرسوفي الشافعي.

سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

فيها خرج العسكر من القاهرة لحفظ ثغر عسقلان من الفرنج، وكانوا قد نزلوا عليها في السنة الخالية، وكانت العادة أن يخرج في كل ستة أشهر عسكر بدلاً من العسكر الذي بالثغر. فلما قدم البدل كانت النوبة لركن الدين المظفر أبي منصور عباس بن تميم ربيب العادل، فخرج ومعه من الأمراء ابنه نصر بن عباس، والأمير ملهم، والضرغام، وأسامة ابن منقذ وغيره، وكان لأسامة بعباس اختصاص كبير.

فلما نزلوا بعد رحيلهم من القاهرة على بلييس تذكر عباس وأسامة مصر وطيبها وما هم خارجون إليه من مقاساة السفر ولقاء العدو، فتأوه عباس أسفاً على مفارقتها لذاته بمصر، وأخذ يلوم العادل ويثرب عليه من أجل كونه أخرجهم. فقال له أسامة: لو أردت كنت أنت سلطان مصر، فقال: وكيف لي بذلك؟ فقال: هذا ولدك ناصر الدين بينه وبين الخليفة مودة عظيمة، فخاطبه على لسانه أن تكون سلطان مصر موضع عمك، فإنه يحبك ويكره عمك؛ فإذا أجابك فاقتل عمك، فوقع هذا الكلام

من عباس بموقع وقبله، فاستدعى ابنه وأسر إليه بما تقرر بينه وبين أسامة وسيره سراً إلى القاهرة.

وكان العادل قد كره تخصيص نصر بن عباس بالخليفة الظافر، وقال لعباس (وأمه): والله ما ينبغي اجتماع نصر بالخليفة؛ قولاً له يقصر من اجتماعه فربما نتج من شايين ما لا ينبغي، وقال لأم عباس: لا يدخل ابنك داري إلا بإذني. فكأنه يوحي بأنه قاتله.

فلما سار نصر من عند أبيه ودخل إلى القاهرة كان وقت غفلة من العادل أمكنته فيها الفرصة، فاجتمع بالظافر وأعلمه بالحال التي قدم من أجلها، فأعجبه ذلك وأذن فيه، لما كان في نفسه من قتل ابن السلار لصبيان الخاص وغير ذلك. ففارق نصر الخليفة وقد قوي عزمه، وأتى إلى دار جدته السيدة بلارة بنت القاسم زوجة العادل، وأخبر العادل بأن أباه سمح له بالعود إلى القاهرة شفقة عليه وخوفاً من وعثاء السفر، فقبل ذلك ومشى عليه، فلما أصبح العادل يوم الخميس سادس محرم مضى من أول النهار إلى مصر لتجهيز المراكب الحربية والنفقة في رجالها وعرضها؛ فظل نهاره في تهيئة ذلك ليلحق عباساً، وعاد في أثناء النهار إلى داره بالقاهرة وقد لحقته مشقة وتعب تبعاً كثيراً. فلما استلقى على الفراش لينام، وكانت امرأته جدة نصر قد توجهت إلى الحمام وخلا له البيت؛ فجاء إلى بيت السر ودخل منه ومعه سيف، فإذا العادل قد نام وقت القائلة، فاخترط سيفه وضربه وهو خائف، فوقعت الضربة على رجله، فثار من فراشه وأبصره، فقال: إلى أين يا كليب! وخرج نصر يعدو، وكان قد أعد ستة من أصحابه، فلما صار إليهم وأعلمهم بما وقع قالوا له: قد قتلت نفسك وقتلتنا ودخلوا وهو معهم، فإذا به قد جاء أستاذ من خدامه وهو يحدته فقتلوه وأخذوا رأسه، فطلع بها نصر إلى الظافر. وماج الناس في القاهرة.

وسرح الطائر للوقت بطلب عباس من بليس، فقام من فوره وصار إلى القاهرة، فدخلها بكرة يوم الجمعة سادس محرم، ثاني يوم قتله العادل؛ فوجد جماعة من الأتراك كان العادل اصطفاهم واختصهم قد نفروا وتوحشت قلوبهم مما وقع؛ فأخذ يسكن أمرهم، فلم يثقوا به ولا اطمأنوا إليه، وخرجوا يدا واحدة فساروا إلى دمشق.

وكانت قتلة العادل في يوم الخميس وقت الظهر السادس من المحرم، وله في الوزارة ثلاث سنين وستة أشهر.

ولما حملت رأسه إلى الظافر أشرف من باب الذهب، ونصبت الرأس ليراها الناس، ثم حملت إلى خزانة الرؤوس من بيت المال فأودعت فيها مع الرؤوس، وما تحرك لها ساكن، ولا تكلم أحد. إلا أن نائحة كانت تسمى خسروان كانت قد مهرت في صناعة النياحة على الأموات، وصارت تنشئ في نواحيها الوقائع، فقالت فيه ترثيه سطين أعجب بهما أدباء العصر من جملة قطعة:

ماتقبل الغفلة

يا شهيد الـ

يا شيه ذي النورين

صاحب المختار

ويطل مسير العساكر إلى عسقلان، فسر الفرنج ما جرى، وكانوا محاصرين لعسقلان فقالوا لأهلها: سلطانكم قتله ابنه وأنتم تقاتلون لمن؟ فلما صح الخبر لهم وهنوا لانقطاع المدد عنهم حتى أخذها الفرنج وقوا بأخذها. واستعرضوا كل جارية ومملوك بدمشق من النصارى، وأطلقوا قهراً من أراد منهم الخروج من دمشق إلى وطنه شاء صاحبه أو أبي.

ولما وصل عباس خلع عليه الظافر خلع الوزارة في يوم الجمعة المذكور،

ونعت بالأفضل ركن الإسلام، فباشر وضبط الأمور ، وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسيهم العادل.

واستمر ولده نصر على مخالطة الخليفة، فاشتغل به عن كل أحد، وأبوه لا يعجبه ذلك، وواصل الخليفة الظافر نصر بن عباس بن تميم بالعطاء الجزيل، فأرسل إليه في يوم عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار، ثم أغفله أياماً وحمل إليه كسوة من كل نوع؛ وأغفله أياماً وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار؛ وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغل رحل وأربعين جملاً بعددها وغرائرها وحبالها. وكان يتردد بينهما مرتفع بن فحل في قتل نصر لابيّه عباس كما قتل زوج جدته العادل ابن السلار، فبلغ ذلك أباه على لسان أسامة بن منقذ فلافه واستماله. وزاد الأمر حتى كان الخليفة يخرج من قصره إلى دار نصر بن عباس، التي هي اليوم المدرسة المعروفة بالسنيوية، فخاف عباس من جرأة ابنه وخشي أن يحمل الخليفة على قتله فيقتله كما قتل ابن السلار، فعتبه سرا ونهاه عن ملازمة الخليفة وأتبه ، فلم يفد فيه القول.

وفيهما وصلت مراكب من صقلية، فملكوا مدينة تنيس.

وفيهما مات رجار بن رجار صاحب جزيرة صقلية، وقام من بعده ابنه وليالم بن رجار بن رجار، فاسترد المسلمون سواحل إفريقية والمهدية (١٣١)

(١٣١) - في هذا الموضع بنسخة الأصل ، عقب نهاية أحداث سنة ٥٤٨، طيارة جاء فيها: « بخطه : وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ورد الخبر أن الفرنج أشرفوا على أخذ عسقلان فأمر بحمل رأس الحسين بن علي بن أبي طالب إلى القاهرة، فأخرج وله رائحة كالمسك ولم يجف دمه، ثم حمل في عشاري من عشاريات الخدمة مع مكنون الخادم وخرج معه

الأمير سيف المملكة متولي عسقلان، والقاضي المؤمن ابن مسكين، فسارا بها حتى وضعوه في الكافور، فأدخل به من السرداب إلى قصر الزمرد.

وكان الإمام الظافر بأمر الله أبو المنصور إسماعيل بن الحافظ قد بنى المسجد المعروف اليوم بجامع الفكاكين ليضعه فيه، فجمع الظافر أهل بيته واستشارهم فأشاروا بأن يجعل الرأس عندهم في القصر، فدفن عند قبة الديلم من القصر بدهليز الخدمة، وصار كل من يدخل منه للخدمة يقبل الأرض أمام القبر، وكانوا ينحرون عنده كل يوم عاشوراء الإبل والبقر والغنم ويكثرون البكاء والنوح ويسبون من قتله، ولم يزلوا كذلك حتى زالت دولتهم، وكان وصول الرأس في يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة منها وحصل في القصر يوم الثلاثاء عاشره وأنشد القاضي ابن الزبير في دخول الرأس أبياتا نونية، منها:

مالنا نطلب ما بيننا ولا

نطلب إلا من الذي يبقى لنا

لهف قلبي على رؤوس نقلت

بعد سواها هنا بعد هنا

سنة تسع وأربعين وخمسة

فيها استدعى الظافر ناصر الدولة نصر بن عباس وأخرج له صينية من ذهب فيها ألف حبة ما بين لؤلؤ وياقوت أحمر وأصفر وزمرد أخضر ذباني، وأمر له من بيت المال بعشرة آلاف دينار مصرية، فقتله بعد هذه الهدية بستة أيام، وذلك أنه خرج الخليفة الظافر متنكراً من قصره في ليلة الخميس سلخ المحرم ومعه خادمان، وسار على عادته إلى دار نصر بن عباس، فقتله نصر، وحفر له تحت لوح رخام ودفنه، وقتل سعد الدولة، أحد الخادمين اللذين خرجا معه من القصر، وفر الآخر.

وكان سبب قتله أن الأمراء استوحشوا من أسامة بن منقذ عندما علموا أنه هو الذي حسن لعباس قتل ابن السلار وتحذثوا بقتله، وقيل للظافر عنه إنه غريب ومن دولة أخرى وإن في تركه وقوع ما لا يمكن تداركه، فلما بلغ أسامة ذلك أخذ يغري عباساً بابنه نصر ويبالغ في القصة حتى قال له يوماً: كيف تصبر على ما يقول الناس في حق ولدك واتهامهم الخليفة أنه يفعل به ما يفعل بالنساء. فشق على عباس ولام ابنه، فلم يصغ إلى لومه. فلما أنعم الظافر على نصر بناحية قليوب وحضر إلى أبيه ليعلمه بذلك قال أسامة، وكان حاضراً: ماهي بمهرك غالية، فامتعض لذلك عباس وقال لأسامة: كيف الحيلة في الخلاص مما بلينا به؟! فقال: هين؛ هذا الخليفة في كل وقت يأتي إلى عند ولدك في داره خفية، فمره إذا جاء أن يقتله، فاستدعى عباس ابنه وقال: يا بني قد أكثرت من ملازمة الخليفة وتحذث الناس في حقك بما أوجع باطني، وقد يصل من هذا إلى أعدائنا ما لا يزول، فاحتد نصر وقال له: أيرضيك قتله؟ فقال: أزل التهمة عنك كيف شئت. فأخذ حينئذ نصر يعمل الحيلة في قتل الظافر وسأله أن يخرج إلى داره ليلاً في سر من الخدم ليتفصحا في منزله ليلة واحدة؛ وكان منزله دار المأمون البطائحي. فخرج إليه في عدة يسيرة من الخدم؛ فلما تحصل عنده اغتاله، وقتل الخدم الذين معه بالجماعة الذين قتل بهم العادل ابن السلار، ورمى بهم في جب عنده، وغطى رأس الجب بقطعة رخام بيضاء فصارت من جملة رخام المجلس، فخفي أمره، ثم مضى نصر إلى أبيه وعرفه قتل الظافر.

وكان الظافر من أحسن الناس صورة، وقتل وله من العمر إحدى وعشرون سنة وتسعة أشهر وخمسة عشر يوماً، منها مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأربعة عشر يوماً. وكان محكوماً عليه من الوزراء.

وفي أيامه أخذ الفرنج عسقلان واستولوا عليها، وظهر الوهن والخلل في الدولة، فإنه كان كثير اللهو واللعب مع جواريه، مقبلاً على سماع

المغنى، وهو الذي أنشأ الجامع المعروف الآن بجامع الفكاكين في خط
الشوائين من القاهرة.

وفيه ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر
دمشق من مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، فسار أبق
إلى بغداد، ومات بها.

وكان عند الإمام الظافر ببقاء بيضاء تقرأ المعوذتين وتستدعي كثيراً
من الأستاذين بأسمائهم ونعوتهم.